دور الشريعة الإسلامية في التنمية المستدامة

بحث مقدم الى مؤتمر

دور منظمات المجتمع المدني في تحقيق التنمية المستدامة

"رؤية مصر ٢٠٢٠ـ٢٠٣٠ "

٦ـ٧ مايو ٢٠٢٢ م

كلية الحقوق ـ جامعة المنصورة

إعداد

أ.د/ أبو السعود عبد العزيز موسى

أستاذ الشريعة الإسلامية

كلية الحقوق ـ جامعة المنصورة

بداية:

أعتقد أنه كان من الأفضل أن يكون عنوان هذا المؤتمر: "دور منظمات المجتمع المدني والأفراد في تحقيق التنمية والتكافل الاجتماعي" لكي يشمل الأفراد لأن لهم دور مهم في تحقيق التنمية بجانب منظمات المجتمع المدني، كما أن المطلوب تحقيق التنمية بصفة مطلقة، فلا يقتصر العنوان على التنمية المستدامة، بل يشمل المستدامة وغير المستدامة مع التكافل الاجتماعي. وفي القرآن العظيم يقول الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: "ما فرطنا في الكتاب من شيء"[1]. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: "أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ألا إنها ستكون فتنة" فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ : "كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم؟ وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد) من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم"[2].

(١) سورة المائدة الآية رقم ٣٨.

(٢) سنن الترمزي، ج٥ ، ص٢٢ ، رقم ٢٩٠٦ تحقيق بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي- بيروت ١٩٩٨م

كما يقول عز وجل في محكم التنزيل: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا"[1]. كما يقول العليم الحكيم في محكم كتابه العزيز: "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير"[2]. الله سبحانه وتعالى في الآية القرآنية الكريمة الأولى في هذا البحث: "ما فرطنا في الكتاب من شيء" المعنى واضح تماما لكل من يعرف اللغة العربية، فهذا القرآن العظيم كما وصفه رسول الله صلى الله على وسلم في الحديث السابق ذكره جامع شامل لكل ما يصلح البشرية في الدنيا وفي الآخرة بطريق مباشر وغير مباشر وبإجمال وتفصيل، وما كان منه مجملاً قامت بتفصيله السنة النبوية الكريمة.

فالقرآن العظيم ينظم علاقة المرء بربه عز وجل وبأسرته وبمجتمعه ويرسم له طريق الفلاح والنجاح ففي هذا القرآن الكريم قوله سبحانه وتعالى: فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى"[3]. وفيه قوله عز وجل: "من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون"[4]. وجاء به قول أصدق القائلين: "ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا"[5].

(١) سورة المائدة، الآية رقم ٣.
(٢) سورة الملك، الآية رقم ١٤.
(٣) سورة طه الآيتان ١٢٣، ١٢٤.
(٤) سورة النحل، الآية رقم ٩٧.
(٥) سورة طه، الآية رقم ١١٢.

وفي الآية القرآنية الكريمة الثانية قوله جل شأنه: "اليوم أكملت لكم دينكم ..... الخ الآية" فهذا مما يليق بخاتمة الرسالات (رسالة الإسلام) الكمال المطلق نقولها بملئ الفم، الكمال في كل التشريعات التي تنظمها في كل أمور الحياة والتي تضمن السعادة الكاملة للبشرية جمعاء، لأنه عز وجل يعلم من خلق حق العلم وذلك كما جاء في الآية القرآنية الكريمة الثالثة في هذا البحث: "ألا يعلم من خلق ..... الخ الآية" أي أن الخالق العظيم يعلم حق العلم ما يصلح عباده من التشريعات فيشرعها لهم آمرًا إياهم بالعمل بها والجزاء الحسن العظيم على قيامهم بها وعدم مخالفتها، والعقاب الأليم على مخالفتهم وعصيانهم لهذه التشريعات.

سبق الشريعة الإسلامية لهذه المصطلحات

قد يظن البعض أن هذه المصطلحات البراقة من مثل عنوان هذا المؤتمر: "دور منظمات المجتمع المدني في تحقيق التنمية المستدامة" هي مصطلحات حديثة من نتاج علماء العصر الحديث ومن بنات أفكارهم ونتاج قرائهم وأنهم قد حازوا قصب السبق في هذا المجال.

ولكن كل ما صدر عن هؤلاء وأكثر منه جاءت به الشريعة الإسلامية من بداية نزولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم- وإن كان قد ورد بمسميات أخرى- لأن التنمية المستدامة وغير المستدامة بكل ما يتعلق بها من ضوابط وقواعد وأحكام جاءت بها الشريعة الإسلامية لأن كل ما يعود نفعه على البشر عاجلاً أم آجلاً فهو من مقتضيات الشريعة الإسلامية ومن مقاصدها[1].

(١) التنمية المستدامة من مقاصد الشريعة الإسلامية- مجلة الشريعة والقانون بتفهنا الأشراف- دقهلية- العدد الثالث والعشرون لسنة ٢٠٢١م الجزء الرابع. د/ أحمد محمد عزب موسى، ص٣٣٧٤.

وقال علماء الأصول المؤيدين للعمل بالمصالح المرسلة[1]: "حيثما تكون المصلحة يكون شرع الله سبحانه وتعالى" أي أن الشارع الحكيم يحمي مصالح العباد ويقرها، بل ويأمر بالأخذ بها إذا كان فيها مصلحة للعباد، سواء كانت هذه المصلحة فيها جلب منفعة أو دفع مفسدة، ولا تخالف نصًا من نصوص الشريعة الإسلامية الآمرة باجتناب هذه المصلحة.

لأنه في الحقيقة إذا كانت هذه المصلحة مخالفة لأوامر الشارع الحكيم ونواهيه فهي مصلحة موهومة وفي الأصل هي مفسدة.

وذلك كما يطالبون بإباحة الربا في البنوك بحجة تيسير المعاملات، وما أيسر المعاملات بالنظام الإسلامي. ومثل من يطالب بإباحة الخمور والقمار في الأماكن السياحية بحجة تشجيع السياحة، وهذا فيه تدمير للسياحة وليس تشجيعًا لها والأمثلة على ذلك كثيرة أكثر من أن تحصى لهذه المصالح الموهومة التي هي في الأصل مفاسد، وليست مصالح.

تعريف التنمية:

التنمية في اللغة: مصدر من الفعل (نمى) يقال: أنميت الشيء ونميته: جعلته ناميًا[2].

(١) المصالح المرسلة هي المصالح التي ليس فيها نص بالاعتبار ولا نص بالإلغاء، لأنه إذا كان فيه نص بالاعتبار فالمصلحة تكون معتبرة أي أمر الشارع باعتبارها، وإذا كان فيه نص بالإلغاء فالمصلحة تكون ملغاة أي نهى الشارع عنها، والمرسلة أي المطلقة.

(٢) لسان العرب لابن منظور- جمال الدين أبى الفضل محمد بن مكرم ابن على بن منظور الأنصاري، ج١٥، ص٣٤١ طبعة دار صادر – بيروت – لبنان – الطبعة الثالثة.

التنمية في الاصطلاح هي: العمل على زيادة الموارد والقرارات الإنتاجية لتلبية احتياجات الأفراد وتحقيق التكافل الاجتماعي بينهم بأبهى صوره.

وإذا كانت التنمية هي زيادة الموارد والقدرات الإنتاجية، وتحقيق التكافل الاجتماعي فهذا ما جاءت به الشريعة الإسلامية الغراء.

أحكام الشريعة الإسلامية الآمرة بالعمل وزيادة الإنتاج:

يقول الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد ويسفك الداء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون"(١).

اختار الله عز وجل الإنسان ليكون خليفة في الأرض، ليحكم فيها بشرعه الحنيف، ويقوم بتعميرها، وإخراج كنوزها من باطنها، ويحقق فيها مشيئة الله الخالق العظيم من نشر للفضيلة ومحاربة للرزيلة، ويخلف فيها ظن ملائكة الله جل شأنه وعظم سلطانه حين فقالوا لرب العزة جل وعلا حين أخبرهم بجعل الإنسان خليفة في الأرض: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء".

فمهمة الإنسان هي تعمير الأرض بكل الوسائل التي يستطاع بها هذا التعمير الذي يحقق تنمية هذه الأرض تنمية توفر وتحقق السعادة لكل البشر والحياة الهانئة لهم.

ولذلك يقول أصدق القائلين في محكم التنزيل: "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها"(١).

(١) سورة البقرة، الآية رقم ٣٠.

أي طلب الله سبحانه وتعالى من الإنسان عمارة الأرض بالمعنى الشامل لهذا المفهوم ماديًا ومعنويًا، وبالمعنى الحديث طلب من البشر صنع الحضارة في الأرض، ولا حضارة بغير علم ولذلك جاء في الحديث الشريف المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"(٢). ومن هنا تأخذ الحضارة في الإسلام حكم العلم فتكون هي أيضًا فريضة.

لأن طلب الله سبحانه وتعالى بإعمار الأرض وتحقيق التنمية لن يتحقق إلا بالعلم. والقرآن العظيم فتح باب البحث العلمي أمام الجميع على مصراعيه دون أية قيود أو سدود فقال أصدق القائلين في محكم التنزيل: "الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون"(٣).

في هاتين الآيتين الكريمتين يخبرنا المولى عز وجل بأنه لكي يتمكن الإنسان من تحقيق التنمية وإعمار هذا الكون سخر له هذه المخلوقات الجبارة من البحار والأنهار والسموات والأرض بكل ما فيهما من إمكانات. سخر له هذه الخلائق الكونية الهائلة ينتفع بها على شتى الوجوه، وذلك بالاهتداء إلى طرف من سر الناموس الإلهي الذي يحكمها، والذي تسير وفقه ولا تعصاه. ولولا هذا الاهتداء إلى طرف السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة، ولا

=

(١) سورة هود الآية، رقم ٦١.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٥- ٣٠) من طرق عن أنس رضي الله عنه مرفوعا بلفظ: طلب العلم فرية على كل مسلم" وقال المزي- كما في اللآلئ المنثورة للزركش: ٤٣- هذا حديث روي من طرق تبلغ ربتة الحسن.

(٣) سورة الجاثية، الآيتان ١٢، ١٣.

استطاع أن يعيش معها، وهو هذا القزم الصغير وهذه المردة الجبابرة من القوى والطاقات والأحجام والأجرام والبحر أحد هذه الجبابرة الضخمة التي سخرها الله للإنسان. فهداه إلى شيء من سر تكوينها وخصائصها، علمه الله صناعة السفن العملاقة التي تزن آلاف الأطنان تسير على الماء الرقيق الرقراق "لتجري الفلك فيه بأمره" وجعل خصائص الضغط الجوي وسرعة الرياح وجاذبية الأرض، وسائر الخصائص الكونية الأخرى مساعدة للإنسان في تسييره السفن في البحار للانتفاع بخيرات البحر وتحقيق التنمية المطلوبة لإعمار الكون مثل الصيد للطعام وللزينة، وكذلك للتجارة والرياضة والنزهة وسائر ما يريده الإنسان من فضل الله في البحار.

وكل شئ في السماوات والأرض مسخر للإنسان لكى يتمكن من تحقيق الخلافة التي خلق من أجلها وهي إعمار هذا الكون والإعمار لا يكون إلا تحقيق للتنمية التي يبتغيها الإنسان.

وهذا يعنى أن السماوات والأرض وما بينهما مجال للبحث والدراسة.

وفي ختام الآية القرآنية الكريمة السابقة: "إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" إشارة إلى أن أبواب البحث العلمي لن تفتح ولن تيسر إلا لقوم يتفكرون. أى لهؤلاء الذين يستخدمون عقولهم، ويجندون إمكاناتهم الفكرية للبحث والدراسة بصرف النظر عن أجناسهم ومعتقداتهم ولغاتهم.

والتفكير يعد من القيم الحضارية الإسلامية التي أكد عليها القرآن الكريم في كثير من آياته العظيمة، لأنه الوظيفة الأساسية للعقل الإنساني الذي يعد أجَلَّ نعمة أنعم الله بها على الإنسان(١).

والعمل الجاد المخلص لتحقيق التنمية بأفضل صورة وما يترتب عليها من تحقيق رفاهية المجتمع وقوته وبالتالي تحقيق التكافل الاجتماعي بين الناس أمر به الشارع الحكيم في أكثر من آية قرآنية كريمة.

فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى في محكم كتابة العزيز: "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون"(٢).

فالعمل مأمور به لتحقيق التنمية التي يترتب عليها القوة الاقتصادية التي تحقق العزة والكرامة للناس وللدولة على حد سواء.

ومن هذا القبيل أمر الشارع الحكيم للمسلمين بالعمل بعد انتهاء وقت الصلاة في المسجد حيث يقول جل شأنه في محكم التنزيل: "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغضوا من فضل الله واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون: (٣)

فالشارع الحكيم في هذه الآية القرآنية الكريمة يأمر المسلم بعد الانتهاء من الصلاة بالسعي في الأرض والعمل لتحصيل الرزق المقدر له من الله سبحانه وتعالى، هذا العمل الذي يحقق التنمية التي ينشدها المجتمع ويسعي إليها.

---

(١) الدكتور/ محمد حمدي زقزوق في كتابة: المسمون في مفترق الطرق ص٢٨. هدية مجلة الأزهر عدد: جمادي الأول ١٤٤٣ هـ/ ديسمبر ٢٠٢١م.
(٢) سورة التوبة الآية رقم ١٠٥.
(٣) سورة الجمعة الآية رقم ١٠.

لأن الشارع الحكيم يأمر الإنسان دائمًا بالتوازن بين ما هو للآخرة وما هو للدنيا، أى بين العبادات المحضة كالصلاة والصيام وبين غيرها من العبادات الأخرى التي هى أعمال دنيوية وإذا فعلها الإنسان ابتغاء وجه الله عز وجل فسوف يحصل على ثواب هذه الأعمال أيضًا.

ولذلك يقول أصدق القائلين في محكم كتابة العزيز:

"وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين"(١)

أي على الإنسان أن يستمتع بالحياة الدنيا ويسعي في الأرض لتحصيل هذه الطيبات، أى يعمل من أجل التنمية والرفاهية وهو كما قلنا إذا كان يبتغى بها وجه الله سبحانه وتعالى فسوف يثاب عليها أعظم الثواب وإن كانت لأجل مصلحة دنيوية. فهنا يتحقق التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة، التي لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية السليمة البسيطة.

ولكى تكون التنمية حقيقية وعلى أكمل صورة يأمر الشارع الحكيم بسؤال أهل الذكر، أى الخبراء المتخصصين في هذا العمل، البارعين فيه، الذين يفهمون فيه حق الفهم. وفي هذا يقول عز وجل في أصدق الكلام: "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"(٢).

(١) سورة القصص الآية رقم ٧٧.
(٢) سورة الأنبياء الآية رقم ٧.

كما نهى الشارع الحكيم عن كنز المال وتوعد من يقوم بكنزه ولا يظهره للاستفادة منه وتحقيق التنمية من خلاله فقال سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذاقوا ما كنتم تكنزون"(١).

فالمال لم يخلقه الله للكنز والحبس في الخزائن المعدة لذلك، وإنما خلقه الله للاستثمار والتنمية فيرزق بسببه أناس كثيرون.

عدم جواز الانقطاع للعبادة في الإسلام:

يحرص الدين الإسلامي العظيم كل الحرص على القيام بالأعمال النافعة وليس القيام بها فقط، بل إتقانها على أكمل وجه يعرفه القائم بها. فقد جاء في الحديث الشريف: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه" وذلك لكي تتحقق التنمية على أكمل وجه وأحسنه.

والانقطاع للعبادة دون عمل لأجل الدنيا غير مستحب تمامًا، فمن المعروف أنه لا رهبانية في الإسلام.

فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم: يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها – أي عدوها قليلة – فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فإني

(١) سورة التوبة الآيتان ٣٤ ، ٣٥.

أصلى الليل أبدا، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس منى".

والثلاثة رهط من الصحابة رضوان عليهم هم : على بن أبي طالب وعبد الله بن عمرو بن العاص وعثمان بن مظعون.

ومما يؤيد ما جاء في الحديث النبوي الشريف السابق ذكره: قوله سبحانه وتعالى في محكم كتابة العزيز: "زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب"(١).

ويؤيد هذا الحديث الشريف أيضًا قوله صلى الله عليه وسلم: "حبب على من دنياكم الطيب والنساء" ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم:"فمن رغب عن سنتي فليس مني" أي من أعرض عنها غير معتقد لها كارها إياها، لا مجرد عدم إتيانها والقيام بها.

ومما يدل على عدم جواز الانقطاع للعبادة قوله سبحانه وتعالى السابق ذكره "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون".

(١) سورة آل عمران الآية رقم ١٤.

كل عمل يقوم به المرء ابتغاء وجه الله يكون عبادة:

كل العمال الدنيوية من زراعة وصناعة وتجارة وحرف يدوية يقوم بها المرء فهى عبادة إذا كانت بغرض تحقيق التنمية وزيادة الرخاء على الناس وتقوية الدولة اقتصادًيا ورفعة شأن الوطن، كل هذا عبادة إذا كان ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى.

ففي الحديث الشريف:"ما زرع إنسان من زرع وأكل منه إنسان أو طير أو حيوان إلا كان له به صدقة" فالثواب هنا – لأن الصدقة هي الثواب – على مجرد العمل بالزراعة، فللزارع الثواب حتى لو باعه واخذ ثمنه، لأنه في هذه الحالة ساهم في توفير الغذاء للإنسان والطير والحيوان.

فلا يعقل أن يطلب الشارع من الزارع أن يزرع الزرع ويعطيه للناس ليأكل منه الإنسان والطير والحيوان ثم يجلس هو ليتفرج عليهم ويشاهدهم وهو يأكلون زرعه دون مقابل.

وفي الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " في كل ذات كبد رطبة أجر" أي أن كل معروف لذوات الكبد الرطبة من الإنسان أو الطير أو الحيوان، لصاحب هذا المعروف الأجر الجزيل من الله سبحانه وتعالى.

وليس أدل على ذلك ما أخبرنا به صلى الله عليه وسلم: من أن الله سبحانه وتعالى أدخل رجلاً الجنة بسبب سقيه كلبًا كان يأكل الثرى من العطش.

فالعمل لتحقيق التنمية هو السبيل الوحيد لتقدم الأمة وازدهارها وهو مطلوب حتى لو قامت الساعة. ففي الحديث الشريف قال صلى الله عليه وسلم: "إذا قامت

الساعة وفي يد أحدكم فسيلة – شجيرة صغيرة – فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل"[1].

وجاء في الآثار المروية:

"احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً" [2].

ففي هذا الأثر الحث الشديد على العمل لتحقيق التنمية إلى أبعد مدى يراه الإنسان، فيعمل كأنه سوف يعيش إلى آخر الدنيا دون كلل أو ملل.

حجب وسائل التنمية كفر في الإسلام:

من عظمة هذا الدين الإسلامي أنه جعل حجب وسائل التنمية، أو عدم مراعاة التكافل الاجتماعي يعادل الكفر في الإسلام، وذلك لأهمية تحقيق التنمية وبذل وسائل هذه التنمية لمن يحتاج إليها.

فجاء قوله جل شأنه في محكم التنزيل: "أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين. فويل للمصلين. الذين عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون. ويمنعون الماعون." [3].

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٩٨١) والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩) والضياء المقدس في الأحاديث المختارة: جـ ٢٦٢٧ (٢٧١٢) من حديث أنس رضى الله عنه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٣/٤: رجاله أثبات ثقات.

(٢) أخرجه ابن قتيبة في غريب الحديث (جـ ٢٨٦/١، جـ٣٨٥/٢، وابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٤٩) والحارث ابن أبي أسامة في مسنده (١٠٩٣) عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنه موقوفا، ورواة إسناده ثقات.

(٣) سورة الماعون من الآية رقم ١-٧.

تبدأ السورة القرآنية الكريمة بالاستفهام إلى كل من يفهم السؤال من البشر لكي يعلموا حقيقة من هو المكذب بالدين، الذي نزل من عند الله سبحانه وتعالى على جميع البشر عن طريق الرسل والأنبياء جميعهم.

أليس التكذيب بالدين هو الكفر بعينه، لأن هؤلاء المكذبين بالدين هم من المصلين الذين يصلون رياء ونفاقًا لم تؤثر فيهم صلاتهم حتى تجعلهم يكرمون اليتيم الذي هو في قمة الضعف والهوان ويحتاج إلى عطفهم وحنانهم، ولا يتواصون فيما بينهم على إكرام هذا اليتم ولا على إطعام المساكين الذين يحتاجون إلى الطعام ولا يملكون ثمنه. ومعنى (يدع اليتم) أى يدفعه ويزجره زجرًا عنيفًا إذا جاء يطلب منه حاجة، احتقاراً له وتكبرًا عليه لفقده النصير، وخلو ظهره من المجير، واليتيم مظهر الضعف وممثل الحاجة، فالمستهين به مستهين بكل ضعيف محتقر لكل محتاج.

(ويمنعون الماعون) والماعون هو كل ما يستعان به لقضاء المصالح والحاجات فهي تشمل كل وسائل التنمية التي يحتاجها الناس.

فهؤلاء المكذبين للدين لا يأتون من الأعمال إلا ما يرى للناس، مما لا يكلفهم بذل شئ من أموالهم، ولا يخشون منه ضررًا يلحق بأبدانهم، ثم يمنعون الناس معونتهم، ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سد حاجاتهم، وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم، أولئك لا تنفعهم صلاتهم، ولا يخرجهم من حد المكذبين بالدين.

فخاصة المصدقين بالدين – التي تميزهم عمن سواهم من المكذبين – هي العدل والمرحمة وبذل المعروف للناس.

وخاصة المكذبين بالدين – التي يمتازون بها عن المصدقين – هي احتقار حقوق الضعفاء، وقلة الاهتمام بمن تلذعهم آلام الحاجة، وحب الأثرة بالمال، والتعزز بالقوة، ومنع المعروف عمن يستحقه من الناس.(١)

فالشارع الحكيم يقدر التنمية بكافة صورها حق قدرها وهذا الاهتمام من الشارع الحكيم بالتنمية رأيناه في النصوص الكثيرة التي أشرنا إلى بعض منها.

وهل توجد تنمية حقيقية في أي مجتمع إلا إذا كان فيه تكافل اجتماعي يراعي حاجات الفقراء والمساكين وكل من يحتاج لهذا التكافل من المرضى والمدينين وغيرهم، ولذلك رأينا الشارع الحكيم يهتم أعظم اهتمام بالتكافل الاجتماعي حيث شرح الزكاة، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام وقرنها بالصلاة في أكثر من موضع في القرآن الكريم فقال عز وجل: "وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة" وهل الزكاة إلا تكافل اجتماعي حدد الشارع الحكيم الأموال التي تكون فيها الزكاة ومقاديرها والجهات التي تصرف إليها والإمام هو الذي يقوم بجمعها من الأغنياء، ويعطيها لمستحقيها حفاظًا على كرامتهم.

ومما يساعد على التنمية الحقيقية وفيه تكافل اجتماعي في أبهى صورة تشريع الوقف الذي هو: حبس العين وتسبيل الثمرة".

فالواقف المتبرع في سبيل الله يوقف ماله، أى يحبسه فلا يباع، ويتبرع بعائد هذا المال وثمرته لما يراه من الأعمال الخيرية، كالمساجد المدارس والمستشفيات

(١) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ص١٢٤ طباعة مطابع الشعب بالقاهرة – راجعه على الرسم العثماني الشيخ عامر السيد عثمان – عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف. تحت إشراف مراقبة البحوث والثقافة بالأزهر.

وطلاب العلم، وأي جهات خيرية طالما تقوم بعمل مشروع. وكما يجوز وقف العقار يجوز وقف المنقول كذلك. فكل ما ينتفع به مع بقاء عينه يجوز وقفه في سبيل الله سبحانه وتعالى.

ومما يكون فيه تكافل حقيقي هو تشريع الكفارات التي هي جوابر للذنوب، يخرجها المكلف إذا ارتكب خطأ في حق الله أو في حق الغير.

- والكفارات تكون إما تحرير أرقاء أيام أن كان هناك رقيق أو صيام أو إطعام.

- والإطعام ممكن يكون بدلاً منه نقودًا فهذا يجوز ولا شئ فيه.

ومن هذا القبيل ونعى الشارع الحكيم وتوعده لمن لا يعمل على تحقيق التكافل الاجتماعي قوله سبحانه وتعالى في سورة الفجر: "وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن. كلا بل لا تكرمون اليتيم. ولا تحاضون على طعام المسكين."(١)

فمن الجرم والخطأ الذي لا يغتفر من قبل الشارع الحكيم هو عدم إكرام اليتيم في حالة ضعفه وذلته وانكساره لفقده أبيه والمجتمع الذي لا يكرم فيه اليتيم فهو مجتمع لئيم، لأنه يؤدي هذا التجبر على اليتيم إلى نشأة فتى في المجتمع كله حقد وغل على هذا المجتمع ويحاول الإضرار به على قدر ما يستطيع، بعكس ما لو تم إكرامه ينشأ إنسانًا صالحًا نافعًا للمجتمع لا ضارا به. وأيضًا هؤلاء المجرمين الذين لا يحث بعضهم بعضًا على إطعام المساكين- لأن الحض هو الحث والترغيب – يستحقون أشد العذاب الذي توعدهم به الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة الفجر الآيات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ،.

والشارع الحكيم لأهمية التكافل الاجتماعي لتحقيق التنمية وتحقيق الأمان في المجتمع قرن في هذه الآيات القرآنية الكريمة من سورة الحاقة بين عدم إطعام المساكين وعدم الإيمان به فقال جل شأنه: "إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين". [1]. فهؤلاء توعدهم الشارع الحكيم بأشد العذاب نكاية فيهم وليس لعدم إطعام المساكين فقط وإنما لأنه لم يحث ويرغب الآخرين في إطعامهم، فالإسلام لم يكتف من المؤمنين بحب المساكين وإطعامهم فقط.[2] بل هو يأمرهم بأن يأمروا غيرهم أيضًا، ويحضوا المتقاعدين عن ذلك حضّاً.

ومن مظاهر الحث والترغيب على ذلك أن يدعو المسلم إخوانه المؤمنين إليه، ويكلفهم مساعدته فيما يبغيه: من العناية بالفقراء، وإزاحة عللهم، وتيسير أسباب المعيشة عليهم، وتمهيد طرق الحياة الطيبة بين أيديهم. والقرآن الكريم وإن كان قد اقتصر من ضروب العناية بالفقراء على ذكر الطعام وحده، فإنما ذكره كنموذج ومثال، وإلا فالإسلام يأمر بإيوائهم وإلباسهم وقاية لهم من أذى البرد، ويأمر بتعليمهم وإرشادهم إلى ما به صلاح دينهم ودنياهم من علم وصناعة وكل ما يحتاجونه لقضاء حوائجهم. فلا يجوز حجب شيء عنهم فيه منفعة لهم، فهذا يعدل عدم الإيمان بالله سبحانه وتعالى وهو الكفر بعينه.

وأكتفى بهذا القدر لأنه في الحقيقة هذا الموضوع يحتاج إلى مجلدات لكي نوفيه حقه في الشريعة الإسلامية.

هذا وبالله التوفيق والسداد إنه نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) سورة الحاقة الآيتان ٣٣ ، ٣٤.

(٢) تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي ص ٤١ مطابع الشعب. صدرت هذه الطبعة ضمن سلسلة كتاب الشعب بإذن خاص من وزارة التربية والتعليم وقد أخ١ذت عن طبعة المطبعة الأميرية عام ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٩م التي قام بتصحيحها والتعليق عليها بتكليف من الوزارة الشيخ على محمد حسب الله أستاذ العلوم الشرعية بكلية دار العلوم.

خاتمة البحث

قلت أنه من الأفضل أن يكون عنوان هذا المؤتمر: دور منظمات المجتمع المدني والأفراد في تحقيق التنمية والتكافل الاجتماعي". لأنه لا توجد تنمية دون تكافل اجتماعي.

وقلنا الشريعة الإسلامية سباقة لكل التشريعات في تقريرها للتنمية والتكافل الاجتماعي وإن اختلفت عن هذه القوانين في بعض المصطلحات، فقديما قال العلماء لا مشاحة في الاصطلاح، فالعبرة بالمعاني لا بالألفاظ والمباني.

وقلنا الشريعة الإسلامية مع كل تشريع فيه جلب مصلحة للناس أو دفع ضرر عنهم لأنه كما قال العلماء: حيثما تكون المصلحة يكون شرع الله سبحانه وتعالي" شريطة ألا يكون مخالفًا لنص من نصوص الشريعة المتفق عليها.

كما تعرضنا للنصوص الشرعية التي تأمر بالتنمية وتحث عليها وتعطي المكلف الثواب الجزيل على عمله بالتنمية قضاءً لحوائج الناس، مع حصوله على المنفعة الدنيوية جراء هذا العمل.

وقلنا الشارع الحكيم يوازن دائمًا بين ما هو للدنيا وما هو للآخرة، ويعطي الثواب العظيم على هذه الأعمال التي تكون لتحقيق مصالح دنيوية إذا كانت ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى.

أي أن المكلف يقوم بالعمل الدنيوي كالزواج أو السعي على الرزق ليعف نفسه ويطعم زوجته وأولاده، له مع ذلك الثواب العظيم من الله سبحانه وتعالى فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى.

وقلنا لا يجوز في الإسلام الانقطاع للعبادة البدنية، الإيجابية أم السلبية، لأنه كما قلنا كل عمل يقوم به الإنسان عبادة إذا كانت نيته خالصة لله سبحانه وتعالى،

وذكرت أن حجب وسائل التنمية يعادل الكفر في الإسلام بأدلة من القرآن الكريم وكذلك عدم المساهمة في التكافل الاجتماعي.

كما ذكرت أن أحكام الشريعة الإسلامية في مثل الزكاة والوقف والكفارات هى وسائل لتحقيق التنمية، وتحقيق التكافل الاجتماعي في الوقت ذاته.

فكل أحكام الشريعة الإسلامية في الحقيقة وبإمعان النظر فيها هى حث وترغيب في التنمية وتحقيق التكافل الاجتماعي؟ وخير مثال على ذلك الحث والترغيب في طلب العلم من قبل الشارع الحكيم.

ونسأل أنفسنا هذا السؤال: هل يكون هناك تنمية بدون العلم؟.

الحقيقة المؤكدة أنه لا تنمية بدون العلم المتطور والمتعلق بكافة مناحى الحياة.

وأختم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أراد هما معا فعليه بالعلم."

هذا وبالله التوفيق.